

أخبار المناقب ومناقب الأخبار

عبد الأحد السبتي

عندما يتجه المؤرخ الحديث إلى المصادر الأدبية «التقليدية»، فإنه ينطلق من تصنيف متداول يميز بين تاريخ الدول والتراجم والمناقب... وقد ألف الباحث أن يلتقي بظاهرة التداخل بين هذه الأنواع، وهي ظاهرة تتخذ عدة أشكال. فالنسابة يدعى مؤرخا، وصاحب نشر الثاني يتحدث في مقدمة كتابه عن فوائد التاريخ، ويستند إلى حجج استشهد بها صاحب الاستقصا فيما بعد⁽¹⁾؛ ومصنف السلوة يُبرر مجهوده بإهمال مغاربة عصره لكتابة التاريخ، وتاريخ المدينة قد يكون مجرد سجل لتراجم مشاهير رجالها. وداخل مؤلف من جنس معين، لا يتردد المؤلف في إيراد معلومات تنتمي إلى جنس آخر كأن نلتقي بصفحات من التاريخ السياسي ضمن كتاب في الأنساب، أو نصادف الكرامات داخل أخبار الدولة.

إن علاقة الباحث بهذه المسألة هي من قبيل علاقة الألفة التي تحجب قضايا منهجية هامة. فالتصنيف المتداول للموروث الاستوغرافي يؤدي بالبعض إلى تجاهل ذهنية المؤرخ التقليدي، وهي ذهنية تعود خصوصياتها إلى ظروف نشأة الكتابة التاريخية العربية — الإسلامية. لقد كان الحافظ الأساسي هو تدوين أخبار اللحظة

1 — يتعلق الأمر بأبي بكر الخطيب البغدادي الذي اكتشف، بفضل معرفته التاريخية، زور وثيقة تتضمن أمرا نبويا بإسقاط الجزية عن يهود خيبر. راجع محمد بن الطيب القادري، نشر الثاني لأهل القرن الحادي عشر و الثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج 1، الرباط، 1977، ص 13 — 14؛ الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 1، الدار البيضاء، 1954، ص 4.

النبوية كملحظة — مثال، وكان الانطلاق من الخبر ؛ بينما استعملت كلمة «تاريخ» في البداية للدلالة على زمن الحدث، وعندما ظهر مفهوم «علم التاريخ» في فترة متأخرة، شمل مواضيع متنوعة (أخبار، طبقات، مناقب...)، على أن القاسم المشترك الذي يجمع بين هذه المكونات هو قابليتها للضبط الزمني⁽²⁾.

هناك إذن مرجعية ثقافية عامة تحدد ظاهرة التداخل بين الأنواع. غير أننا نود معالجة الموضوع انطلاقاً من تجربة النصوص المغربية، ونود الاقتصاد على عينة محددة من خلال السؤال التالي : ماهي دلالة التداخل بين المناقب وكتب الأخبار ؟ فعندما يضع المؤرخ الحديث نصوصه على محك النقد الذي يتوخى تحقيق الوقائع، فإنه يعتبر الكرامات مجرد شوائب وعناصر أسطورية يجوز، بل يستحب الاستغناء عنها ؛ وهذا موقف اتبعه ابن خلدون في كتاب العبر قبل أن يقر به التاريخ الوضعاني الحديث. وفي حالة توفر مؤلفات المناقب على معطيات «تاريخية»، فإن الباحث يسر باكتشافه، ويضع العملية في خانة الاستطراد، دون أن يتساءل عما قد يكون وراءه من مغزى.

في تناولنا لمسألة «التبادل» بين المنقبة والخبر، سوف ننقل القارئ بين نصوص وأحداث تنتمي إلى فترات متباعدة من تاريخ المغرب، غير أن هناك خيطاً رابطاً يتصل بموضوع التأسيس.

I — الدولة المرينية وكرامة التأسيس.

نقرأ في كتاب الذخيرة السنينة قصة تتعلق بنشأة الحكم المريني :

كان الأمير عبد الحق في شبابه «قليل الولد» وذات ليلة، بعدما انتهى من قراءة ورده، رأى في منامه «كأن قبس نار خرج من قبله فعلا في الهواء وارتفع، ثم تفرق واتسع حتى احتوى على أقطار المغرب أجمع، واستوى على جهاته الأربع، وأشرق نوره في نواحيه وسطع». استيقظ عبد الحق مفزوعاً، وذهب عند أحد الصالحين، فطمأنه هذا الأخير وبشره بالمجد لعقبه : «أبشر فإنك تلد أولاداً ذكوراً يكون لهم عز وشرف مذكور (...) يملك المغرب منهم أربعة، تكون الأمة على أيديهم مجتمعة،

(2) أنظر علي أومليل، مادة «تاريخ»، الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، 1986، مجلد 1، وكذا :

- Abdesselam CHEDDADI, «Ibn Khaldūn, anthropologue ou historien ?», introd. à IBN KHALDŪN, *Peuples et nations du monde*, Paris, 1986, T.1, PP.27 et suiv.

يكون لهم التقديم والرياسة، والظهور والسياسة. «آنذاك تزوج الأمير أربع نساء، فولدن أربعة ذكور، وتحققت الرؤيا(3).

1 — قراءة داخلية

سوف نحاول، في مرحلة أولى، أن نفكك هذه الرواية في إطار منطقتها الداخلي، حيث سنعتبرها نصا ينتمي إلى موضوع تكراري، وهو موضوع الرؤيا المبشرة بالملك(4). إن هذا النمط يتخلل أخبار الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، وتدخل بعض عناصره في إطار ثقافي أوسع. وتبرز أمامنا خمس موضوعات.

النور. يرمز النور هنا إلى الحكم، وفي حالات أخرى ترد رموز مغايرة. فعبد المومن الموحي رأى في منامة «صحفة من طعام (...) يأكل الناس منها كافة»، وقبل ذلك، حين اضطجعت أمه مرة وهي حامل به، «أقبل بندان من نخل فنزلا (عليها)»، وبعد ولادة عبد المومن جاءت به أمه إلى الفدان، وبينما كانت تلتقط السنبل نزل النحل على الطفل النائم، ثم ابتعد عنه «وافترق فرقتين واحدة للمشرق وواحدة للمغرب»(5). أما محمد بن عبد الرحمان جد السعديين، فقد حج فرأى في المنام «أن أسدين خرجا من إحليله فتبعهما الناس إلى أن دخلا صومعة فوقف هو ببابها»(6).

تتنوع الرموز التي تشير إلى السلطة، غير أن النور رمز بالغ الانتشار. ففي ليلة ولادة المولى إدريس الثاني، يقال أن نجما «من المشرق والمغرب له نور أوله أبيض وآخره أحمر (طلع) وبقي يطلع على أهل هذا المغرب الأقصى مدة هي سبعة أيام...»(7). ومن المثير أن رؤيا عبد الحق المريني تعيد، بطريقة تكاد تكون حرفية،

(3) علي بن أبي زرع (؟)، الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية، الرباط، 1972، ص 31 — 32.

(4) حول العمق الثقافي لهذا الموضوع، راجع :

- Roger CAILLOIS et G.H. Von GRUNEBAUM (dir.), *Le rêve et les sociétés humaines*, Paris, 1967 ; Toufic FAHD, *La divination arabe*, Leiden, 1966, chap.II.

(5) بالنسبة لمجموع الكرامات التي بشرت بحكم عبد المومن، أنظر البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، 1971، ص 14 — 15.

(6) محمد الصغير الوفراني، نزعة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادي، الرباط، د.ت، ص 9. وحول كرامات التأسيس السعدي، راجع : عبد اللطيف الشاذلي، المجتمع المغربي في القرنين الخامس عشر والسادس من خلال الآداب الصوفية، أطروحة دولة، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 1987، مرقون، ص 328 — 329.

(7) محمد بن جعفر الكتاني، الأزهار العاطرة الأنفاس، بذكر محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس، فاس ط. حجرية، 1307 / 1889. ص 195.

ما حكى عن أبي مسلم الخراساني إبان نشأة الخلافة العباسية. فقد كان أبو مسلم ضيفاً عند أحد أصدقائه، ورأى في نومه كأنه جالس يتبول، فخرجت من ذكره نار ارتفعت في السماء فأضاء نورها الأرض ثم نزل في اتجاه المشرق⁽⁸⁾.

إن للنور حضوراً دائماً في الثقافة الإسلامية، لأنه يرتبط بمرجعية نبوية واضحة، حيث جاء في حديث نبوي: «ورأت أُمِّي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضأء لها قصور الشام»⁽⁹⁾. ولا غرابة في أن كثيراً من الروايات تقرن النور بالنار، فالأول ينتج عن الثاني، والكلمتان تنتميان إلى نفس الاشتقاق اللغوي العربي، ويبدو أن مجالات ثقافية غير إسلامية توظف النار للتعبير عن التطهير والتجديد. وتتضمن النار وفق هذا المنظور معنيين، معنى الهدم والخنق، ومعنى الأحياء والانبعاث⁽¹⁰⁾.

الرؤيا الصالحة. لقد حصلت رؤيا عبد الحق بعد الانتهاء من قراءة الورد، وصاحبها حسب الرواية المتداولة ولي ذائع الصيت، وذو بركة ودعاء مجاب. فالرؤيا هنا بمثابة الكرامة، وهي الرؤيا الصالحة التي حظيت في الثقافة الصوفية بمصادقية مستمرة. يميز ابن خلدون بين «الرؤيا الصادقة» و«أضغاث الأحلام الكاذبة»، ويضيف: «والرؤيا مدرك من مدارك الغيب. وقال صلى الله عليه وسلم: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». وقال: لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح أو تُرى له»⁽¹¹⁾.

السلطة والتنازل. تحصل الرؤيا المبشرة بالملك للمعني بالأمر، وقد تحصل للأمر أو للأب. وفي الحالة التي تهمننا تقترن الأبوة بالقبول. جاء في لسان

(8) - Toufic FAHD, *Op.cit.*, PP.260-261.

(8)

(9) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق م. السقا، إ. الأبياري، ع. شلبي، تراث الإسلام، د.ت، القسم الأول، ص. 166. وكثيراً ما يرد رمز النور في كرامات الأولياء، كما أنه يرد في كتب الأنساب كأسلوب يثبت انتساب بعض البيوتات للسلالة النبوية. راجع:

- Abdelahd SEBTI, «Saharifisme citadin, charisme et historiographie», *Annales E.S.C.*, mars-avr. 1986, PP.448-449.

10 — في عدد من ميثولوجيات آسيا الوسطى، يعني النور الحرارة التي تعطي الحياة، أو «القوة التي تلج بطن المرأة». وفي الصين، يولد أبطال أو مؤسسو الدول بعد أن يغمر نور عجيب غرفة أمهاتهم. راجع: -Jean CHEVALIER (dir.), *Dictionnaire des symboles*, Paris, 1982, art. «feu».

(11) راجع ابن خلدون، المقدمة، بيروت، 1967، ص 882 وما يليها.

العرب : «القبل : خلاف الدبر، وهو الفرج من الذكر والأنثى»⁽¹²⁾. وفي رواية حول جد العلويين مولاى الشريف، يؤدى «الظهر» نفس المعنى.

«وكان رحمه الله وهو صغير مرَّ ذات يوم على الامام العامل العالم أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني، فسأل عنه أبو محمد إذ لم يكن يعرفه، فقليل له هو ابن مولانا علي بن محمد ففرح به ومسح على ظهره وقال : ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين. فتيقن الناس أن هذا الأمر يقع، لما يعلمون من ولاية أبي محمد رضي الله عنه»⁽¹³⁾.

ففي لسان العرب، «يقال : رجل خفيف الظهر : قليل العيال، وثقيل الظهر : كثير العيال»⁽¹⁴⁾.

الرؤيا والتعبير. ترمز رؤيا عبد الحق إلى الحكم، أي أنها تعبر عن الحكم، إلا أن التعبير يعني كذلك التأويل، أي عبور المسافة بين الرمز / الدال والمعنى / المدلول. وهذه العملية قد تحدث بصفة تلقائية داخل الرؤيا، وقد تتدرج الرؤيا بين الغموض والوضوح، وذلك ما حصل لعبد المومن الموحي. فبعد صورة صحيفة الطعام، نام مرة أخرى «فرأى الرؤيا بعينها إلا أن الناس يبايعونه». وكل ذلك وقع له خلال رحلة قام بها رفقة عمه. وكان عبد المومن يحكي لعمه كل مناماته، فينصحه هذا الأخير بكتمان الرؤيا⁽¹⁵⁾، أي باحترام عادة معروفة، وهي عادة خالفها عبد الحق الميرني لأنه أفاق مفزوعا، ولأن تحقق رؤياه يتطلب المرور بعملية الزواج.

عدد أربعة. نستطيع، بفضل ابن خلدون، أن نتبين خريطة عائلة عبد الحق⁽¹⁶⁾ : فقد كان للأمير «تسعة ذكور وأختهم ورتطليم». ونقترح هذا الجدول الذي يضع أسماء الأبناء بجانب أمهاتهم.

(12) ابن منظور، لسان العرب، مادة «قبل».

(13) محمد الصغير الوفرائي، م.س، ص 299.

(14) ابن منظور، م.س، مادة «ظهر».

(15) حول كتان الرؤيا المبشرة بالملك، راجع كذلك ما حكى عن أحمد المنصور الذهبي. عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كرم، د.ت. ص 26 — 27.

(16) ابن خلدون، كتاب العبر. بيروت، 1968، ج 7، ص 349 — 350.

سوط النساء	إدريس
(من بني علي)	عبد الله
	رحو
النوار بنت تصاليت	عثمان
(من بني ونكاسن)	لمحمد (أبو معرف)
تاغزوت بنت أبي بكر بن حفص	أبو بكر (أبو يحيى)
؟	زيان
(من بني تنغالت)	
أم الفرج	أبو عياد
(من أحد بطون بني عبد الواد)	
أم اليمن	يعقوب (أبو يوسف)
(من بطيوة)	

يذكر كتاب العبر نسب النساء، ونلاحظ أن ورتطليم البنت الوحيدة للأمير عبد الحق، لم تجد مكانها بجانب إحدى النساء الأمهات، وأن إحدى الزوجات لم يرد اسمها بينما اكتفى ابن خلدون بذكر انتمائها القبلي. مما يؤكد أن الزواج كان يقوم أساسا بوظيفة دعم استراتيجية التحالفات. لكن الأهم بالنسبة لتحليلنا الراهن، هو أن الأبناء الأربعة الذين قادوا المرينيين بعد وفاة عبد الحق — وهم علي التوالي : عثمان، أبو معرف محمد، أبو يحيى أبو بكر، وأبو يوسف يعقوب — لم يولدوا لأربع نساء، بينما تقول الرواية : «فتزوج أربعاً من النساء، فتولد له منهن أولاده المذكورون...». لقد قام نص الرؤيا باختزال يدور حول عدد أربعة، إذ يتخذ هذا العدد صبغة رمزية من خلال تكرارية حضوره، فهو يستقطب دلالات مختلفة : عدد الزوجات، والعدد الشرعي للزوجات، وعدد السلاطين الذين تنبأت بهم الكرامة، وعدد الجهات التي استوى عليها النور. ومن المعلوم أن أربعة عدد شاعت رمزيته عبر ثقافات المعمور⁽¹⁷⁾.

لقد حرصنا، في تتبعنا لنسيج موضوعات الرؤيا، على احترام منطوق الرواية، ولذلك قارنا النص بنصوص مشابهة، واستعملنا المرجعية الثقافية، باعتبار أن الرؤيا تفصح عن مضامينها حين نضع لغتها في الاطار الملائم، ونحلل مكوناتها على ضوء

(17) في إحدى الثقافات الافريقية (مالي)، يدل عدد أربعة على فكرة الأنوثة. أنظر :

- Jean CHEVALIER (dir), *op.cit.*, art. «Quatre».

معجم ثقافي متعدد المستويات. لغير بعد ذلك زاوية القراءة، ولتساعل حول دلالة الرؤيا في سياق ورودها ، أي في علاقتها باللحظة التاريخية التي تمت فيها صياغة الرواية.

2 — قراءة سياقية.

إن «تحقق» منامة عبد الحق يعني أن روايتها وضعت بعد أن تولى الحكم رابع الأبناء، أبو يوسف يعقوب. ومن المثير أن صاحب الذخيرة السنية يحكي لنا مشهدا نرى فيه هذا السلطان، وهو يساهم في رسم ملاح أبيه. فالنص تدوين مباشر لرواية شفوية محددة تتصل بمرحلة تأسيس الدولة.

قدم السلطان من مراكش إلى الرباط، في رمضان 683هـ، استعدادا للجواز إلى الأندلس برسم الجهاد، فاستقبل «وفد أهل مدينة فاس من الشرفاء والفقهاء والصلحاء». دار الحديث حول الأمير عبد الحق، فقال عنه ابنه يعقوب : «كان والله عبد الحق صادق اللهجة كريم الفعال (...) ببركة سراويله يسهل الوضع على الحوامل. وكان يسرد الصوم ويقوم أكثر الليل، وإذا سمع بصالح أو عالم قصد زيارته، ويستوهب منه الدعاء. وكان من صدق يقينه وحسن ظنه أنه إذا دعا له صالح نصب برنسه لأخذ دعائه، فإذا فرغ الرجل من الدعاء ضم أطراف برنسه وجاء به إلى بيته فجمع أولاده ونفض عليهم البرنس وهو يقول : هذا حظكم من دعاء الصالحين...» (18).

يخبرنا صاحب الذخيرة السنية أنه روى هذا الحدث عن الفقيه القاضي عبد الله بن الودون، وهو أحد الحاضرين في اللقاء المذكور. إن لهذا النص فوائد متعددة : فهو يتجاوز ويتكامل مع رواية الرؤيا، بل يساعدنا على تحديد فترة صياغتها ؛ وهو يعرفنا في آن واحد بمناخ بداية تأريخ البدايات المرينية. لقد حرصت هذه الدولة على احتضان فئة من المؤرخين الذين ارتبطوا بها، بشكل لم تعرفه الدول السابقة (19). بدأ المسلسل بنواة من شعراء البلاط الذين كانوا يحيطون بالأمير أبي

(18) علي بن أبي زرع (?)، الذخيرة...، م.س، ص 31.

(19) راجع :

- Maya SHATZMILLER, *L'historiographie mérinide : Ibn Khaldûn et ses contemporains*, Leiden, 1982, PP.109 et suiv.

مالك ابن السلطان يعقوب، ومن بينهم عبد العزيز الملزوزي (ت. 697 / 1297) مؤلف الأرجوزة المسماة بنظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك. ويبدو أن الذخيرة السنية شكلت منعطفا في نشأة الاستوغرافيا المرينية، إذ تم معها الانتقال إلى مرحلة التدوين الحقيقي. وقد بين محمد القبلي أن الرواية شبه الرسمية لبروز الحكم المريني عملت على إعادة هيكلة الصيرورة العسكرية — السياسية المرينية بشكل تراجمي، وأن هدفها الضمني كان هو تعويض الفقر السياسي — المذهبي الذي رافق انطلاق العصبية المرينية نحو الاستيلاء على مقاليد الحكم⁽²⁰⁾.

إن الاطاحة بالدولة الموحدية تحقيق لرؤيا صالحة حصلت لولي صالح هو بالذات الأمير عبد الحق، والحكم الجديد تتويج لصالح الأمير : هكذا يتلخص مضمون الكرامة، وهو مضمون يدعمه حديث يعقوب عن أبيه. فلا غرابة في أن المصادر تنتهي بسلسلة نسب السلاطين المرينيين إلى عبد الحق، وتحدث أحيانا عن «الدولة المرينية العبد الحقية».

إن تقديس عبد الحق تقديس لمرحلة التأسيس، وهو بمثابة العنصر المناقبي داخل استراتيجية متكاملة تسعى إلى دعم مشروعية الدولة الجديدة.

في سنة 668 / 1269، دخلت جيوش أبي يوسف يعقوب إلى مراكش قاعدة الموحدين. ومن الملاحظ أن عهد يعقوب شهد مبادرات وتحولات حاسمة، ففي 669 / 1270 تمت تولية ولي العهد أبي مالك، وكان هذا التعيين، الأول من نوعه عند المرينيين، إعلانا عن الانتقال من الخلافة الأفقية — بين الأخوة — إلى الخلافة العمودية، ومعناه أن توارث العرش حصر داخل ذرية يعقوب. وفي 674 / 1275 كان الجواز الأول إلى الأندلس، ثم في أواخر نفس السنة الهجرية كان بناء فاس الجديد. سوف نتوقف عند هذا الحدث الأخير الذي يضعنا أمام التزامن بين تأسيس قاعدة الملك وبين تقديس عبد الحق كتأسيس رمزي لنفس الملك.

(20) أنظر :

- Mohamed KABLY, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du «Moyen-Age» (XIVe-XVe siècle)* Paris, 1986, PP. 60-61.

II — المرينيون وفاس

اقترن بناء فاس الجديد بتخلي الدولة الجديدة عن عاصمة المرابطين والموحدين⁽²¹⁾. وسيكون اختيار العودة إلى العاصمة الادريسية بداية لاعادة ترتيب موقع مدينة فاس، وذلك من عدة زوايا : زاوية علاقتها مع الحكام الجدد، وزاوية ذاكرتها الادريسية، وزاوية إشعاعها الصوفي اللاحق الذي تلا إنشاء ضريح إدريس الثاني.

1 — روايتان لتأسيس «فاس المرينية»

تقول الرواية المتواترة أن يعقوب أراد أن «يختط بلداً ينسب إليه ويتميز بسكناءه وينزل فيه بحاشيته وأولياؤه الحاملين لسرير مملكه». فالدافع إذن هو الحاجة إلى مجال خاص لاتوفره المدينة القائمة. ويضيف روض القرطاس أن السلطان وقف على البناء، و«أخذ له الطالع الفقيه المعدل علي بن القطان، والفقيه محمد ابن مبارك، وكان تأسيسه (فاس الجديد) في طالع سعيد ووقت ميمون مبارك، ومن بركته وسعادة طالعه أنه لايموت فيه خليفة ولم يخرج قط لواء منه إلا نصر، ولا جيش إلا ظفر»⁽²²⁾.

تسلط الكتابة المناقبية أضواء مغايرة على المناخ الذي كان سائدا بمدينة فاس قبيل إنشاء فاس الجديد. فالبادسي يخص شيخه اسحاق الورياغلي بترجمة تتحدث عن انقسام داخل الوسط التعليمي، وعن «شغب» الطلبة⁽²³⁾. يرد الحدث بقدر من الابهام، فنحن نقرأ فقط أن الصراع دار حول «مسألة فقهية»، إلا أن هناك مؤشرات توحي بأن موضوع الجدل يتصل بالسياسة التعليمية. فالحكم المريني يستعد لتدشين خطة المدارس، وبعض الفقهاء يتحفظون إزاء مايتضمنه هذا المشروع من تطويع مخزني للعلم والتعليم⁽²⁴⁾. وقد واجه أبو يوسف يعقوب هذه الحركة بنفي الفقهاء المعنيين، وفي طليعتهم إسحاق الورياغلي.

(21) حول اختيار العاصمة، راجع :

- Ahmed KHANEBOUBI, *Les premiers sultans mérinides, 1269- 1331 : Histoire politique et sociale*, Paris, 1987, PP. 47-49.

(22) علي بن أبي زرع، روض القرطاس، الرباط، 1973، ص 322.

(23) أنظر ترجمة الورياغلي في عبد الحق البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الرب، تحقيق سعيد أحمد أعراب، الرباط، 1982، ص 110 — 112.

(24) محمد القبلي، «قضية المدارس المرينية : ملاحظات وتأملات» ضمن مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء، 1987، ص 71 — 74.

«...فتناول الشرطي اخراجهم، فأرى الله فيهم البرهان، وكان الذي تولى كبره منهم صاحب الشرطة، ويعرف بأبي العطور، فصار يأكل من لحم أجناحه حتى مات، فبلغ الخبر إلى السلطان فأمر بردهم، وصار السلطان بعد ذلك يعظمهم، ومعظما للفقهاء إسحاق، ومعترفا بفضله، يريد لقاءه فيتمنع منه» (25).

نستمد من مؤشرات أخرى أن هذا التوتر سبق بناء فاس الجديد، وأن بناء مدرسة الصفارين لم يتم إلا بعد إنشاء المدينة المخزنية. ويأتي ابن عيشون (ت. 1109 / 1697)، فيقدم رواية تجعل من نفس الكرامة سببا في انفصال الدولة عن الحاضرة الادريسية.

«كان (إسحاق الورياعلي) يأمر الأمير بالمعروف وينهاه عن المنكر، فأكثر عليه، فقال له اخرج من بلدي. فلما خرج أصاب السلطان وجع شديد، فأمر برده، فقال لأدخل حتى يخرج هو ولا نكون أنا وهو في بلد واحد. فخرج في الحين، فسكن عنه الوجع وأمر ببناء المدينة البيضاء» (26).

قد يميل الباحث إلى توظيف هذه الكرامة للزيادة في توضيح ملابسات الصراع الذي أشار إليه صاحب المقصد غير أننا نلمس أسلوبا في تبسيط الحدث، وتغيب السياق الاجتماعي، فتركز الرواية على الولي الذي يتحدى الحاكم بواسطة خرق العادة (27). هكذا يلتحق النص المناقبي بالصيغة التكرارية، فهيمن دلالاته الرمزية، ويصعب — أو يستحيل — الكشف عن علاقته بالحدث.

يبقى، مع ذلك، أن الكرامة عبرت بشكلها الخاص عن مناخ المواجهة بين المدينة والدولة، وهو مناخ لم تدونه كتب الأخبار. لقد اقترن إذن اختيار المرينيين للعاصمة الجديدة بانفصالهم المجالي عن المدينة الادريسية، وتشاء ظروف السياسة المرينية أن يستعيد الماضي الادريسي حضورا غير متوقع.

(25) عبد الحق البادسي، م.س، ص 111.

(26) محمد ابن عيشون الشراط، الروض العاطر الأنفاس، في أخبار الصالحين من أهل فاس، مخطوط، الرباط، الخزانة العامة، د2409، ص 188.

(27) من الأمثلة التي تنتمي إلى نفس النموذج، هناك كرامة الحسن اليوسي مع السلطان المولى إسماعيل. أنظر: Clifford GEERTZ, *Islam observed : Religions Development in Morocco and Indonesia*, Chicago / London, 1971, PP. 32 et suiv.

2 — فاس الادريسية والرهانات المرينية

تنسب الرواية التقليدية تأسيس فاس لادريس الثاني. فحين استقام الأمر له «وعظم ملكه وكثر جيشه وضائق بهم المدينة (وليلي)»، قرر «الانتقال عنها وأراد أن يبني مدينة يسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته». لقد أسهب صاحب روض القرطاس في وصف محاسن الموقع، وحكى قصة الراهب الذي مر بإدريس الذي كان منكبا على تخطيط المدينة. أخبر الراهب السلطان، نقلا عن راهب سبقه في نفس المكان وتوفي قبل مائة سنة، بأنه ورد في أحد الكتب أن مدينة سابقة وجدت في نفس المكان، وهي «ساف» التي «خربت منذ ألف سنة سيجدها ويحيى أثرها ويقيم دارسها رجل من آل البيت يسمى إدريس»⁽²⁸⁾.

قد نمر بجانب هذا المعطى الهجيوغرافي، دون أن نوليه أي اهتمام. لكن روايات تأسيس مدن أخرى بالشرق والمغرب، مثل بغداد والمهديّة وتونس، تتضمن قصصا مشابهة، إذ نلتقي في كل هذه الحالات بالراهب الذي يذكر بمدينة سبقت في نفس الموقع، وتنبأ ببناء مدينة جديدة⁽²⁹⁾، وكأنا أمام أحد الثوابت التي تستهوي الكتابة في موضوع أصل المدن. وتجسد هذه الفرضية ما يبررها في دراسات تناولت روايات مماثلة في ثقافات أخرى. ففي كتابه حول روما، يلاحظ ميشيل سير :

«الأصل يحيل إلى أصل آخر، البداية تحتاج إلى بداية، الانشاء يتطلب العرافة، والتأسيس يفترض التمهيدات. وكأنا أمام شعاع ضوئي نصطاده بين مرأتين تكادان تتوازيان، فيعيد الشعاع إنتاج الصورة تلو الصورة»⁽³⁰⁾.

تنتمي هذه الاعتبارات إلى تاريخ التصورات، وهي في الحاجة إلى تحريات أوسع. أما مسطرة تحقيق الوقائع، فقد طرحت حول إنشاء مدينة فاس تساؤلات من نوع آخر. فانطلاقا من اكتشاف نقود ضربت بفاس في عهد إدريس الأول، اقترح ليفي — بروثنصال فرضية تدعمها إعادة قراءة المصادر الأندلسية⁽³¹⁾. ففي

(28) علي ابن أبي زرع، روض القرطاس ، م.س، ص 37

(29) إسماعيل العربي، دولة الأدارسة، بيروت، 1983، ص 81 — 82.

(30) أنظر :

.- Michel SERRES, Rome : Le livre des fondations, Paris, 1983, p. 47.

(31) أنظر :

- E, LEVI-PROVENÇAL, «La fondation de Fès», in Islam d'Occident : Etudes d'histoire médiévale, Paris, 1948, PP.3- 41.

سنة 172 / 789، أسس إدريس الأول «مدينة فاس»، وفي 193 / 808 - 809 بني خلفه مدينة «العالية»، وبعد مرور عشر سنوات، تحولت المدينة الأولى إلى «مدينة الأندلسيين». وفي مستوى آخر، لاحظ لويس ماسنيون في دراسته الدقيقة حول كتاب الحسن الوزان، أن هناك اختلافا مربكا بين الروايات التي تتحدث عن تقسيم المغرب بعد وفاة إدريس الثاني، بل نبه الباحث إلى ذكر مدن لم تكن موجودة في تلك الحقبة⁽³²⁾. إنها مؤشرات تزكي احتمال العلاقة بين تدوين تاريخ الأدارسة وبين مجريات أحداث لاحقة.

يقدم المؤرخ الهولندي هرمان بك استنتاجات تسير في نفس الاتجاه⁽³³⁾. فمن خلال المقارنة بين المصادر المرينية والمصادر ما قبل المرينية، يتبين أن صورة الأدارسة تغيرت بشكل ملموس. فمن «قراطة»، و«فاطمين» و«معتزلة»، تحول الأدارسة في الاستغرافية المرينية إلى «سنين» و«مالكيين» و«أهل البيت». تتضح ملامح الصورة الجديدة في كتاب روض القرطاس، الذي رسخ مقولاته من خلال التأثير الممارس على المصادر اللاحقة. إن الرواية المرينية هي بمثابة إعادة الاعتبار لدولة وضعت في البداية في خانة الحركة الشيعية. وبجانب هذه الصورة العامة، تدل النصوص على انتقال تدريجي من التركيز على إدريس الأول إلى التركيز على ابنه «باني فاس».

كيف نفسر هذه التطورات التي عرفتها لهجة المصادر ؟ يبدو أن للجواب صلة بسياسة المرينيين إزاء الأشراف⁽³⁴⁾. لقد احتل الأدارسة الجوطيون بفاس مكانة مرموقة ضمن خريطة الشرفاء الذين حظوا برعاية الحكام المرينيين ؛ وكان من شأن تقوية النفوذ الرمزي لإدريس الثاني - وعاصمته - أن تضع تبجيل الأدارسة المؤسسين تحت مراقبة الدولة المرينية التي استوطنت نفس العاصمة. ومن غير

(32) يعتبر ماسنيون أن هذا الخلط الزمني، الذي نلمسه عبر بعض المصادر التي روت حدث التقسيم، قد يعود إلى العلاقة القائمة بين هذا الحدث وبين البروز اللاحق لشرفاء لجأوا بالضرورة إلى إثبات نسبهم الإدريسي، وهو نسب تصل سلسلته إلى أحد الأدارسة المستفيدين من التقسيم. وبالتالي تم التحديد الجغرافي للأجداد وفق مواطن الأسلاف. راجع :

- Louis MASSIGNON, *Le Maroc dans les premières années du XVI e siècle : Tableau géographique d'après Léon l'Africain*, Alger, 1906, PP. 165- 168.

(33) أعد البحث في الأصل كأطروحة دكتوراه باللغة الهولندية ثم ترجم إلى الفرنسية :

- Herman L. BECK, *Idriss II et la légitimation religieuse au Maroc : Les Shurafa' idrisides et les sultans mérinides*, à paraître, Leiden.

(34) حول الاطار العام لهذه السياسة، أنظر محمد القبلي، «مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين»، ضمن مراجعات...، م.س.

المستبعد أن تكون هذه الخطة من بين امتدادات أحداث العنف التي شهدتها مدينة ويلي سنة 718 / 1318، وهي أحداث لم تصلنا حولها سوى بعض الاشارات المقتضبة(35).

إن تمجيد ذاكرة الدولة الادريسية عملية سعى المرينيون من ورائها إلى الاستفادة من مشروعية أجداد أعيان شرفاء العاصمة(36)، بطريقة تتلافى بها الدولة ما قد يرافق تقديس الأدارسة من شحنة احتجاجية، باعتبار أن تعظيم أهل البيت كان ركنا من أركان المد الصوفي. ويعتقد محمد القبلي أن نفس الهاجس حرك الحجابة الوطاسية في ظرف تأسيس زاوية الأدارسة، وذلك على إثر اكتشاف قبر إدريس الثاني في نهاية 1437 أو بداية السنة التالية(37). هذا حدث آخر ينتظر المزيد من التنقيب، لكن يهمننا أن نسجل ميلاد مؤسسة صوفية سوف تدعم حضور الرمز الادريسي بمدينة فاس.

III — مناقب إدريس الثاني : المدينة والولي المؤسس

1 — كتابة المناقب.

كتبت حول إدريس الثاني مادة مناقبية غزيرة، وهي مادة يلتقي بها القارئ عبر مؤلفات لاتدخل بالضرورة في نطاق أدب المناقب. غير أن هناك «مونوغرافيات» خصصت لولي فاس، ومن بينها نموذجان يسترعان الانتباه، لأن تدوينهما تم في سياق متأزم.

(35) تحكي المصادر أن ظهور جسد إدريس الأول بكفنه، أدى إلى حدوث «الفتنة» وتدخل الجيش. ومن الملاحظ أن الاكتشاف المماثل لجسد إدريس الثاني بفاس، بعد مرور أكثر من مائة سنة، سوف يكون منطلق إنشاء زاوية الأدارسة. حول الأبعاد الرمزية لظواهر مشابهة، راجع :

- Alphonse DUPRONT, *Du sacré*, Paris, 1987, PP.337 -338.

(36) نجد في كتابة مناقب عبد الرحمان المجدوب علاقة مماثلة : بين الاستناد إلى مشروعية هذا الولي — شيخ أبي الحامس الفاسي — وبين «تصفية» السيرة من العناصر التي لاتلاءم مع قيم تصوف النخبة الحضرية. راجع :

- Alfred- L. de PREMARE, *SIDI Abd-er-Rahman et-Mejdûb : Mysticisme populaire, société et pouvoir au Maroc au 16e siècle*, Paris / Rabat, 1985, PP. 73-75.

(37) محمد القبلي، م.س، ص 116 وما يليها.

ألف أحمد الحلبي الدر النفيس⁽³⁸⁾، والمؤلف «حلي المنشأ والدار، وغاسي الرحلة والقرار»، وهو عالم لم يتخل عن انتمائه إلى المذهب الشافعي، لكنه كان يرغب في تأكيد تعلقه بمدينة فاس، وبأعيان شرفائها. وقد تزامن الحافز الشخصي مع ظرفية أعم، إذ عرفت فترة الحلبي اشتداد حركة تدوين أنساب الأشراف الفاسيين (ق. 11 / 17). لقد ظهر آنذاك نسابون كبار، مثل عبد السلام القادري ومحمد المسناوي، وظهرت مؤلفات اعتُبرت فيما بعد نماذج اقتدى بها اللاحقون. وهذا الاهتمام بالكتابة النسبية لا ينفصل عن مناخ التوتر الذي ساد علاقة الحكم الاسماعيلي بمدينة فاس، بل من الجائز أن نعتبر الظاهرة الثقافية نتاجا للظاهرة السياسية. فبجانب ماسجلته كتب الحوليات من مواجهات بين المدينة وممثلي السلطان، تفيد بعض الاشارات بأن الحكم المركزي قرر آنذاك إحكام المراقبة على مسألة الانتساب إلى الذرية النبوية، فكان على الأشراف أن يثبتوا صحة أصولهم من أجل الحفاظ على نفوذهم وامتيازاتهم المتوارثة⁽³⁹⁾. إن كتابة مناقب إدريس الثاني ساهمت إذن، ضمن هذا الموقف الدفاعي، وبصفة غير مباشرة، في دعم مكانة شرفاء فاس، وفي طليعتهم أعيان الأُداسة. ومن غير المستبعد أن كتاب الحلبي يعبر عن ظرف تزايد فيه تبجيل «باني» المدينة في إطار تضامن الكيان الحضري.

وبعد مرور حوالي قرنين، يؤلف محمد بن جعفر الكتاني الأزهار العاطرة الأنفاس، بذكر محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس⁽⁴⁰⁾. ليس هذا الكتاب، في كثير من مواده، سوى إعادة منقحة لما أورده الحلبي، بيد أن دلالاته تبرز بشكل أوضح حين نتأمل العلاقة القائمة بينه وبين مجموع إنتاج المؤلف. فمناقب إدريس الثاني هي امتداد ضمنى لتراجم ومناقب السلوة؛ والأزهار سيرة استثنائية أطل فيها الكتاني لتخليد ذكر ولي فاس. لقد ألح المؤلف على زيارة الضريح الادريسي، واتبع في السلوة أسلوب دليل زيارة القبور والأضرحة. وبشيء من التجاوز، تذكرنا رمزية القبور التي توظف تراجم السلوة، بكتاب اختصار الأخبار حيث يبدأ الأنصاري وصفه لمدينة

(38) أحمد الحلبي الفاسي، الدر النفيس والنور الأنيس من مناقب إدريس بن إدريس، فاس، ط. حجرية، 1896 / 1314.

(39) راجع :

- Abdelahad SEBTI, «Sharifisme citadin, charisme et historiographie», op.cit, PP.437-439.

(40) محمد بن جعفر الكتاني، الأزهار...، م.س.

سبته بذكر «الأعيان المدفونين» بالمدينة⁽⁴¹⁾. فهذا المؤرخ يكتب عن مدينته بعيد الاحتلال البرتغالي (1415)، دون أن يشير إلى الاحتلال، مع أن لحظة الكتابة توحى بالرغبة في رثاء الثغر الضائع. وعند صاحب السلوة والأزهار، نحس بلهجة العالم الذي يعاني من سيرورة التدخل الأوربي، ولا يقف الأمر عند حدود التضمين، إذ يتحدث المؤلف باقتضاب عن بداية استيطان الجالية الأوربية بفاس، ويربط ذلك بتراجع القيم وانحطاط السلوك. فالتذكير بمناقب إدريس الثاني، وبرصيد العلم والصلاح بفاس، يعني إذن من زاوية المؤلف، تسجيلاً لمرحلة أفول، ودعوة إلى التمسك بتراث مشرق في مواجهة تغير وانحراف يندران بأسوأ العقاب⁽⁴²⁾.

2 - الحرم الادريسي ورعاية «مول البلاد»

تزخر مناقب إدريس الثاني بكرامات الولي⁽⁴³⁾، وعبر سجل الكرامات، يبرز الحرم الادريسي كمجال مركزي تشع منه رعاية الولي المؤسس لمدينته⁽⁴⁴⁾. وتوزع الرعاية على سلسلة من الوحدات والكيانات المتداخلة. فالمولى ادريس يحصن مجال الحرم وأهله ضد كل انتهاك أو سوء أدب. وهو يحمي كل من التجأ إلى الحرم فراراً من عدو أو من قبضة حاكم؛ وهنا تسوق الكرامات نماذج متنوعة، وكأنا أمام بنود تكوّن قانوناً رمزياً يضمن إجرائية الحرم كمؤسسة تسهر على التحكيم

(41) محمد بن القاسم الأنصاري، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983، ص 12 - 27.

(42) يذكر الكتاني عدداً من العلامات التي تعني حلول «البلاء» بالأمة، ويستشهد بنصوص تصف ما ينتظر الأمة من عقاب إلهي: «الريح الحمراء»، و «الحسف» و «المسخ»، وكذا «القحط من الزمان، والجور من السلطان، والخيانة من ولادة الأحكام، والصلوة من العدو». الأزهار...، م.س، ص 243 - 244. ونجد مسألة التدخل الأوربي في مقدمة السلوة، وفي عدد من تراجمها. أنظر سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس عن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، فاس، ط. حجرية، ج 1، ص 78، ج 2، ص 192، 256.

(43) خديجة البقالي، الكرامات في أدب المناقب: نموذج «الأزهار العاطرة الأنفاس» لمحمد بن جعفر الكتاني، بحث نهاية الاجازة في التاريخ، الرباط، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1987 - 1988، مرقون، سعيد بويه، الكرامات في أدب المناقب: نموذج «الدر النفيس» للحلي، بحث نهاية الاجازة في التاريخ، الرباط، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1987 - 1988، مرقون. وحول ظاهرة «مول البلاد»، راجع: - Emile DERMENGHEM, *Le culte des saints dans l'Islam maghrébin*, Paris, 1982, PP. 162-163.

(44) أنظر:

- Georges SALMON, «Le culte de Moulay Idrîs et la mosquée des Chorfa à Fès», *Archives Marocaines*, T.III, 1905, PP. 413-429.

وتجسيد الصراعات⁽⁴⁵⁾. وفي مستوى آخر، يحمي الولي ذريته، ويحفظ تجارة المدينة ويساعد على إنعائها مقابل ما يدفعه التجار من «زيارات» منتظمة. ثم تتسع دائرة الرعاية حين يضمن المولى إدريس الاستجابة للدعاء، ويحمي مدينته من كل أساليب التجاوز، بما فيها تعسف الحكام.

«ومن ذلك أن رجلا كان يقبض الغرامة من أهل فاس، فجاوز الحد في بعض السنين وتعبده. فأخبر ذلك الرجل عن نفسه أنه رأى مولانا إدريس رضي الله عنه في المنام، وأوقفه بين يديه، وقال له : أما كفاك مات فعل بخدامنا وجيراننا، فإن الظلمة يحمون عبيدهم وخدامهم وجيرانهم، فكيف بنا أهل البيت لانحامي من لاذ بنا. فلطم مولاي إدريس بيده وجه ذلك المتعدي، وأصبح ونصفه الأسفل قد مات، حتى كان يقول لهم : ضعوا النار الحارة على نصفي لعله يشعر، فكانت النار الحارة توضع على نصفه الأسفل وهو لا يشعر لها...»⁽⁴⁶⁾.

لنتمعن في منطوق هذه الكرامة. من هو هذا المتعدي ؟ ومتى وقعت القصة ؟ لم يهتم النص بهذين الجانبين، بل اكتفى بتحديد بعض الأدوار : الضحية / أهل فاس، قابض الغرامة / الظالم، والمولى إدريس / المنتقم العادل⁽⁴⁷⁾. إن جوهر الكرامة يكمن في الوظيفة الرمزية لولي المدينة، وهي مواجهة الضغط الجباي كأحد أشكال ضغط السلطة، ويأتي الحلم كأسلوب من أساليب إبلاغ مغزى الانتقام. لنترك جانبا مصداقية خرق العادة، ولتساءل : هل توجد كرامات تتصل بإدريس

(45) أبرزت الأنثروبولوجيا الانقسامية وظيفة التحكم التي يقوم بها صلحاء القبائل. راجع أرنتس كلنير، «السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية»، ضمن ليليا بنسالم وآخرون، الأنثروبولوجيا والتاريخ : حالة المغرب العربي، ترجمة وتقديم عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، الدار البيضاء، 1988، ص 43 - 59.

(46) أحمد الحلي، م.س، ص 50.

(47) لا يتدخل المولى إدريس كمجرد ولي يدافع عن مدينته، بل هو في آن واحد «ولي السلاطين وسلطان الأولياء». ومن المفيد أن نذكر بترتيب الكرامات في الدر والأزهار. فهناك الكرامات التي حصلت خلال حياة إدريس الثاني، ولا تتضمن بالضرورة خرق العادة، بل يقتطع فيها المؤلفان وحدات من الرواية الشائعة حول أخبار الدولة الإدريسية ؛ وعبر هذه الأخبار يبرز المولى إدريس كسلطان نموذجي. أما الكرامات التي حصلت بعد الوفاة، فهي تصور الاستمرار الرمزي لحكم إدريس الثاني / السلطان. «ومنها رؤية كثير من الناس له مناما على حياة السلطان، ومعه جنوده وعساكره وخدامه، وهو يأمر ويحكم أو يتصرف، ثم يظهر مصداق ذلك في اليقظة». محمد بن جعفر الكتاني، الأزهار...، م.س، ص

الثاني، وتردد أصداء مناخ المدينة ؟ هل توجد كرامات شبيهة بما حكاها المقصد في ترجمة الورياغلي (48) ؟ لقد التقينا بنموذج يساهم فيه المولى إدريس، وهو نموذج لم يرد عند الحلبي أو عند الكتاني، بل ساقه أحد الاخباريين.

أحمد بن الحاج عالم فاسي عاصر السلطان العلوي الحسن الأول، وكلفه هذا الأخير بتدوين تاريخ أسرته. خصص المؤلف جزءا من كتابه الضخم، الدر المنتخب، للسنّة الأولى من عهد سلطانه، وحكى بتفصيل أحداث ثورة الدباغين التي تلت البيعة (49). فخلال مراسيم البيعة العامة، طالب رجال هذه الحرفة بإلغاء المكس، ووعدهم بعض الأعيان بالتوسط لدى السلطان لتلبية المطلب، فإذا بأمين الأمناء محمد بلمدني بنيس يعيد فرض الجباية بفندق الجلد. بدأ القلق والاحتجاج يسريان عبر المدينة، وبدأت الاتصالات من أجل الاستفسار عن بواعث القرار المفاجيء. وفي هذا الظرف، يظهر المجذوب محمد الكتاني.

«أخذ ديكا وأتى به في يده إلى الأمين المذكور، وقال له : اشتر مني دارك وعرصتك قبل أن تقع في المحذور. فوبخ الشريف المذكور وقال له : لولا أنك شريف لأرسلتك إلى العامل يؤدبك على فعل ما عليه تلام».

«فأخذ سيدى محمد الديك واتفقه، ورماه وقال : هذه دار بنيس وعرصته (...) ثم ذهب ييكى ويشتكى لجده المولى إدريس ويقول : وابلواه» (50).

ومن المعلوم أن حركة الاحتجاج انتهت بنهب دار الأمين وعرصته. لكن كيف تتعامل مع هذه الكرامة ؟

— يشير الديك إلى الغنى والثراء، وهو ما أكدته دراسة تناولت ظاهرة الكرنفال في التاريخ الفرنسي. هناك حسب لُورُوا لادُوري، ثنائية رمزية : حيوانات

(48) أنظر أعلاه، فقرة : «روايتان لتأسيس فاس المرينية».

(49) أحمد بن الحاج، الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، مخطوط، الرباط، الخزنة الحسنية، ز 11961. وانطلاقا من هذا المصدر، نعد حاليا دراسة حول حركة الدباغين، مركزين على أشكال حضور التوتر الحضري في السرد التاريخي التقليدي. ويجد القارئ عرضا إجماليا حول الحدث في :

- Jacques BERQUE, *L'intérieur du Maghreb, XVe-XIXe siècle*, Paris, 1978, PP.489 - 495.

(50) أحمد بن الحاج، م.س، ص 135 - 136.

الأغنياء / الأعلى / الهواء / محددة الجنس، وحيوانات الفقراء / الأسفل / الأرض / الخصي وغياب التحديد الجنسي⁽⁵¹⁾.

— اقتحام سكنى الأمين حدث تنبأ به المجذوب، مما يوافق صورة المجذوب الذي ينطق بالغيب.

— اقتحام سكنى الأمين انتقام للمجذوب المهان، فالذهنية السائدة ترى في أمثال الكتاني أشخاصا يتجرؤون على الكلام في وجه الكبراء، ولا يجوز مخاطبتهم بالعنف⁽⁵²⁾.

— اقتحام سكنى الأمين بمثابة انتقام للمولى إدريس لفائدة حفيده، وكذا لفائدة حرفة الدباغين التي جعلت من باني فاس وليها المؤسس⁽⁵³⁾، ولفائدة المدينة الادريسية التي تعاني من جور الجباية.

إن مجموع هذه الدلالات تجعل من الكرامة تأويلا مناقبيا لحدث اجتماعي ملموس. وداخل عرض المؤلف لتفاصيل الانتفاضة، ترد الكرامة ضمن سلسلة من الجزئيات التي تدعم فكرة ضمنية، وهي أن بنيس تلقى مايكفي من التنبيه، لكنه تعنت ولم يكثرث. وفي مناخ التوتر الذي كانت تعيشه المدينة، نعلم أن المجذوب هو عموما رجل يتنقل عبر الأحياء، ويلتقط ما تفوه به الألسن، ويصرح بما يسكت عنه عامة الناس.

من حظنا أن معرفتنا بالمجذوب المعني لانقتصر على نص الكرامة التي حكاها ابن الحاج. فقد ترجم له صاحب السلوة⁽⁵⁴⁾. فمحمد الزمزمي الكتاني (ت. 1295 / 1878) «خالنا الشريف (...) المجذوب السائح، الولي الصالح». كان في أول أمره حرارا، وظهرت عليه أحوال الجذب بعد زيارته لضريح المولى إدريس الأكبر، و«صار يذهب في الأزقة والطرقات وهو يسف الريح ويفعل أفعالا لا يفعلها

(51) أنظر :

- Emmanuel LE ROY LADURIE, *Le carnaval de Romans*, Paris, s.d. (1986), PP.240 et suiv.

- Alfred-L.de PREMARE, *op.cit*, PP. 55-56.

(52) راجع :

(53) هت رواية شفوية تؤكد تعلق الدباغين بالمولى إدريس، بجانب تعلقهم بولي مارس نفس الحرفة، وهو سيدي يعقوب الدباغ.

(54) محمد بن جعفر الكتاني، سلوة... م.س، ج2، ص 254 — 255.

إلا أهل الجذب...». لقد ذكرت السلوة بعض كرامات المجذوب ومن بينها نكتشف صيغة مختلفة لنفس مارواه الدر المنتخب.

«ومنها، وهي أعظم كراماته التي شاعت وذاعت، أنه في يوم من الأيام ذهب إلى القطانين من فاس القرويين، ووقف بباب فندقها الجديد، وجعل يدلل دارا وعرصة لبعض الرؤساء ممن له شوكة، ويقول : الدار التي في محل كذا والعرصة التي في محل كذا على الله، يطلب بذلك من يشترهما منه. فلما لم يجد مشتريا، قال ها هما باطل، يعني بلا شيء⁽⁵⁵⁾. وأخذ ديكاً مبعوجاً، وجعل ينتف ما عليه من الريش وهو حي. فلامه بعض الناس على ذلك وقال له : لو فعلت هذا بعد ذبحه لكان أبعد عن تعذيبه، فقال له : هو طغى وتجبر. فأعاد عليه القول فقال له : ليس هذا سوقك. فما مضى بعد ذلك إلا يوم أو يومان أو نحوهما، ونهبت الدار والعرصة المذكورتان وهدمتا وحل بهما أمر فظيع في أسرع وقت، وكان اتفاق ذلك من العجب...»⁽⁵⁶⁾.

إن هذه الصياغة تشتمل على عناصر متميزة. فقد اختفى دور المولى إدريس، وركز النص على شخصية حفيده المجذوب. وتم تغييب هوية الأمين بنيس، ولم يذكر زمن الكرامة. وهذا معناه أن هذه الأخيرة غادرت ملابسات الحدث، كي تلتحق بالقيمة النمطية التصنيفية : «بعض الرؤساء» الذي «طغى وتجبر»، عوقب «بأمر فظيع» يدخل في نطاق «العجب»، ولا يهم زمان الكرامة⁽⁵⁷⁾، كما لا تهم هوية الناهبين. يتحول إذن الأمين بنيس إلى نموذج سلبي، بينما يبرز المجذوب كبطل / نموذج مضاد، وتتحول حركة الاحتجاج الاجتماعي إلى فعل غيبي يؤكد قدرات صاحب الكرامة.

IV — امتدادات.

انطلقنا من الرؤيا التي بشرت الأمير عبد الحق المريني بملك أبنائه الأربعة، وانتهينا بكرامة المجذوب الكتاني الذي أنذر الوزير بنيس بما سيصيبه في ظروف ثروة الدباغين

(55) من المثير أن المؤلف «يترجم» تعابير مغربية دارجة إلى العربية الفصحى.

(56) محمد بن جعفر الكتاني، م.س.

(57) إن الاهتمام بتحديد المكان على حساب تحديد الزمن عنصر بنوي في الخطاب الهجيوغرافي. راجع :

- Michel de CERTEAU, art. «Hagiographie», *Encyclopaedia Universalis*.

عند بداية عهد السلطان الحسن الأول (1290 / 1873). وقد توقفنا عند هاتين اللحظتين بقدر من التأويل، وبينهما سقنا القارىء، انطلاقاً من المحطة المرينية، عبر سلسلة من الحقب، في حركة ذهاب وإياب قد تزعج القارىء الذي ألف السرد التاريخي الخطي. فمن المربين إلى فاس الادريسية، ومن إنشاء زاوية الأدارسة من طرف الحجابة الوطاسية إلى الموقع الذي احتلته ذاكرة إدريس الثاني في الفترات اللاحقة. لقد آن الأوان لكي نقدم مبررات اختيارنا : لن نحدد خلاصات نهائية، بل سوف نكتفي بإثارة الانتباه إلى بعض القضايا المنهجية.

1 - في قراءة النص المناقب.

لقد جاءت منامة الأمير عبد الحق لتثبيت مشروعية دولة جديدة، بينما تضمنت كرامة المجذوب الكتاني نوعاً من التأويل الذي يجعل من حركة احتجاج اجتماعي حدثاً يدخل في نطاق ثأر المولى إدريس لذريته ومدينته. يتبين إذن أن صلة الكرامة بالحدث السياسي والاجتماعي ليست صلة أحادية الاتجاه. والأهم هو أن الحالتين المذكورتين أتاحتا لنا أن نتعرف على سياق صياغة النص المناقب، فهناك في النموذج الأول دولة ترسم صورة الشخصية المؤسسة، وهناك في النموذج الثاني كرامة تعكس أصداء حدث اجتماعي سجله شاهد معاصر. فعوض تجاهل الكرامة وتصنيفها ضمن «الزوائد»، وعوض الاكتفاء بالتقاط المادة المناقبية التي يمكن تحقيقها بواسطة وثائق أخرى، أعدنا الاعتبار للكرامة كموضوع معرفي، وذلك على أساس التوفيق بين قراءة داخلية تحاور الرموز والمضمون الثقافي، وبين قراءة خارجية توظف موقع الكرامة في سياقها الحديث. وفيما يخص النموذج الثاني، مكنتنا المصادر من تتبع التحوير الذي طرأ على النص المناقب، حيث تم الانتقال من الكرامة في محيطها الحديث إلى الكرامة المحطية، وهذا عنصر منهجي يستحق أن يُستعمل في مواضيع ونصوص أخرى، لأن النص المناقب يصلنا في معظم الأحيان ضمن الكرامات عبر مسيرتها من الرواية الشفوية إلى الرواية المكتوبة المتواترة، بل إن هذا التباعد الزمني يحصل كذلك في كتب الأخبار، مثلما وقع لتدوين تاريخ الأدارسة.

2 - المنطق المناقب ومسألة الأنواع

لازال الغموض والارتباك يحيطان بأحداث الحقبة الادريسية، غير أن تحقيق المؤرخ للأحداث، وإن كان مجهوداً بالغ الأهمية، فإنه لايلغي ما للروايات المتداولة

من فوائد، وبشكل خاص حين تساعد مقارنة النصوص على الوصول إلى خلاصات مؤقتة توضح الاتجاه الذي يسير عليه تحوير الوقائع، والخلفيات المحتملة للروايات.

لقد تزامن تحقيق رؤيا الأمير عبد الحق مع تأسيس فاس الجديد. ثم ساهم الحكم المريني في إضفاء حلة جديدة على الماضي الادريسي لمدينة فاس، كما أنه زود المدينة بمؤسسة صوفية إدريسية سوف تربط الحاضرة بذاكرة ولها المؤسس. نحن إذن أمام منعطفات التاريخ الرمزي لمدينة مغربية، وهو تاريخ يسكن بجانب تاريخ الوقائع.

إن الحضور الهام الذي تمارسه الشخصيات والمراحل المؤسسة، حضور يقودنا إلى صلب التصور المناقبي. فسيرة الولي لانعرض في شكل حلقات تخضع لصيرورة التغير، بل توصف «كتحقيق لمعطى أصلي»⁽⁵⁸⁾. ومن هنا نطرح السؤال التالي : إلى أي حد يجوز حصر التصور المناقبي في مناقب الأولياء ؟ من الممكن أن نرصد البنية المناقبية في كتب الأخبار وحوليات الدول، ولا يحتاج هذا الاقتراح إلى كثير من الاستدلال حين يتعلق الأمر بتأليف مثل مسند ابن مرزوق المخصص لأبي الحسن المريني، والمنتقى المقصور الذي وضعه ابن القاضي حول شخصية أحمد المنصور السعدي، إذ يهتم كلاهما بمآثر السلطانين، وتتخللهما فكرة أساسية، وهي أن العاهلين يتسمان بمخصال تطابق النماذج التي اختطتها فترة الاسلام المؤسس.

من المفيد أن نبحث عن التصور المناقبي في أجناس تفصل عادة عن أدب المناقب. وفي مستوى آخر، التقينا خلال هذا العرض بكتابات إخبارية تدرج الكرامات ضمن التاريخ السياسي. لقد تساءلنا في البداية حول دلالة التداخل الموجود بين الأخبار والمناقب. يتبين إذن أن الأمر لا يتعلق بمجرد استضافة نوع معين لنصوص تنتمي إلى نوع مغاير، بل إن التصور المناقبي عنصر من العناصر الأساسية التي تهيكل الذاكرة الجماعية.

